العولمة في فكر الأستاذ : سهيل فرح

شريف الدين بن دوبه

في بداية البداية نستهل بمقدمة للأستاذ ((سهيل فرح)) يضع فيها الأوليات المنهجية والمصادرات لكل بحث وحفر أركيولوجي في عالم المفاهيم أو في عالم الأشياء ، والتي نصها : ((**لكل مصطلح حقله الذي ينشأ فيه، ومع صيرورة الأحداث تأتي الذوات المفكرة لأن يتحول المصطلح إلى معنى ، والمعنى إلى مقولة ، والمقولة إلى خطاب ، والخطاب إلى منهج في التفكير والحياة ..**))[1]والحدود التي نريد البحث فيها هي الحدود التي تؤلف القضية التالية : ((العولمة في فكر سهيل فرح))

فالعولمة حد يتعلق بتصور وحد الفكر يندّ عن الحد إذ المشروع يظهر لي أقرب مصداق لحد الفكر في القضية أما الحد الأخير وهو حد مركب لا يُمثّل إلا مصداقا واحدا بعينه وهو الأستاذ سهيل فرح ...

فموقف الأستاذ من حد العولمة لا يخرج عن بنيته الفكرية وتجربته الثقافية وانتماءاته الحضارية ،فعمق وتعددية التكوين وثراءه في شخصية الأستاذ يتأسس على المحيط اللبناني الذي يتعايش فيه العديد من الطوائف واللقاء الثقافي النموذجي لا نجد له موطنا أفضل من لبنان الصغير جغرافيا والواسع ثقافيا ،والتجربة السياسية اللبنانية مظهر للقاء الثقافي والتعايش (اتفاق الطائف) ، (اتفاق الدوحة) ..فالرافد الثقافي للأستاذ سهيل فرح يوحي بانطباع أولي عن موقف الأستاذ من العولمة فإنسان ((فتح عينيه على الوجود في محيط عربي ـ إسلامي ، تعايش فيه الديني مع العلمي ، الإلحادي مع الإيماني ، العُروبي مع اللبناني ، الاشتراكي مع الليبرالي ، الغربي مع الشرقي ، العالمي مع المحلي..)) (1.) على حد تعبير المفكر الأردني كيف يتعامل مع العولمة ؟

فثراء المحيط اللبناني وتعدد المشارب والاتجاهات كفيل بأن أن ينتج عقلا مثل عقل وروح الأستاذ : سهيل فرح . ويمكنني أن أختصر ثقافة لبنان في هذه العبارة : (تنوع ، لبننة ، كرامة ، توافق).

هذه المقدمة تقع وتحتل في هذه المداخلة موقع الأولية الرياضية التي تعتبر مصادرة أساسية في التعامل مع الموضوع :العولمة في فكر سهيل فرح ،ومن الناحية الصورية تملك صدقها من إمكانية البرهنة عليها (تاريخ لبنان) .

أما الحد الثاني في العبارة وهو العولمة كتصور وكحقل تقييمي أمام الأستاذ سهيل فرح ،إذ يمكنني أن أوظف في عملية الحفر والتنقيب في هذا الحقل أداة منهجية يقدمها لنا الأستاذ حين التعامل مع المفاهيم، وقد وردت في مقدمة لمقال : كيف نجمع بين تجديد الإيمان و إرواء العقل والتي نصها:

((...عندما يتم تناول مفهوم الحقيقة بالمفرد يبدو ، للوهلة الأولى ، كأن ثمة حقيقة واحدة ثابتة ، بينما عندما يجري الحديث عن الحقائق بصيغة الجمع ، من حيث هي قضايا متعلقة بجزء ما من هذه الظاهرة ، فهنا تحمل الحقيقة معنى جزئيا أو نسبيا ...)) جريدة النهار اللبنانية أوت :2003 (2)

فالعولمة بصيغتها التداولية تشير إلى أنها لفظ مفرد يحمل مصداقا واحدا ، وفي الحقيقة لها دلالات عديدة تحمل جميع صور التعارض من التضاد إلى التناقض ، ومن هذه القاعدة المنهجية التي يضعها لنا الأستاذ يتضح لنا أن العولمة ليست واحدة ، والتموقع أو التموضع في موقف منها يوجب التعرض لجميع الصيغ التداولية لهذا المصطلح ...

العولمة في اللغة جعل الشيء عالمي الانتشار في مداه أو تطبيقه. وهي في تعريف الأستاذ محمد عابد الجابري عبارة عن: ((تنازل الدولة الوطنية ، أو حملها على التنازل ، عن حقوق لها لفائدة العالم ، أعني المتحكمين فيه ..))3

وهي أيضاً العملية التي تقوم من خلالها المؤسسات، سواء التجارية أو غير التجارية، بتطوير تأثير عالمي أو ببدء العمل في نطاق عالمي.. ولا يجب الخلط بين

العولمة كترجمة لكلمة globalization الإنجليزية، وبين "التدويل" أو "جعل الشيء دولياً" كترجمة لكلمة:internationalizations . فالعولمة عملية اقتصادية في المقام الأول، ثم سياسية، ويتبع ذلك الجوانب الاجتماعية والثقافية وهكذا. أما جعل الشيء دولياً فقد يعني غالباً جعل الشيء مناسباً أو مفهوماً أو في المتناول لمختلف دول العالم.

أما اصطلاحا فلم تستخدم كلمة عولمة في الأعمال الأكاديمية أو الصحافة إلا في سنة 1988 على حد تعبير ـ انتووني جيدنز (4).

أما الكتّاب العرب فلم يتفقوا على اسم واحد لها ، فسمّاها بعضهم ((العولمة)) واصطلح عليها الآخر بـ ((الكونية) ، والبعض الثالث بـ ((الكوكبة))..فالأستاذ إسماعيل صبري عبد الله يقترح الكوكبة كترجمة لـ globalisationفهي مشتقة من globe بمعنى الكرة ألكرة الأرضية وهي الكوكب الذي نعيش على سطحه ، ومقابل العالم (world) ، ومقابل الكون (univers) .وأول من ترجم مصطلح globalisation بالعولمة هو الأستاذ : سمير أمين (5)

هذا العرض المقتضب يؤكد القاعدة التي حددها الأستاذ سهيل في التعامل مع المصطلح بجميع مصاديقه وإن كان المصطلح (عولمة) في صيغة المفرد ..وتعدد السياق التداولي والمفهومي لكلمة العولمة فتح مجالا للنقاش بين بعض المفكرين العرب من أجل تأثيله ـ على حد تعبير الأستاذ المغربي (طه عبد الرحمن) ـ وتأصيله في اللغة العربية وفي التراث .. وهذا النمط من البحث والدراسة لا يتجاوز القشور .. أما الطريقة البحثية التي اعتمدها الأستاذ سهيل فرح في التعامل مع هذه الظاهرة ، فهي علمية تجريبية ،حيث تصدى الأستاذ للبحث في المقدمات الثقافية للمصطلح التي تقع في الظاهرة موقع العلة وتقنينها يرفعها إلى مصاف الحقائق العلمية ..

((العولمة مصطلح نشأ من بطن الحداثة وما بعدها . من الثورة المعرفية والمعلوماتية التي أحدثت تحولا سريعا في حركة التواصل والتفاعل بين الحضارات فبدت وكأنها انتقال طبيعي من فضاء الفكر القومي إلى فضاء التفكير العالمي .

يبدأ الأستاذ بعرض مفهوم العولمة في الإيديولوجيتين الروسية والأمريكية إذ يقدم لنا المفكر والسياسي الأمريكي صمويل هنتغتون 6. نموذجا للعولمة المؤمركة أو المتحدث الرسمي باسم هذه العولمة ، ونستشف من تحليل وتوصيف الأستاذ لأطروحة هنتغتون أنه لا يملك رؤية واحدة بل رؤيتين تتفاوت من مقالته الأولى The clash of civilisation: ، والتي يناهض فيها كل تنوع ثقافي وتعددية ، ويؤكد على سمة الصراع التي تعبر عن روح العصر ، أما الرؤية الثانية فتكشف عن تراجع نسبي وشكلي عن تصوراته الأولية في كتابه الأخير (صدام الحضارات ـ إعادة صنع النظام العالمي (8)إذ يقول الأستاذ سهيل فرح في توصيفه لموقف (هنتغتون) : ((حاول أن يشير الى فرضية قيام حضارة عالمية واحدة مستندة إلى التقارب الثقافي بين حضارات متمايزة في قيمها وتوجهاتها وممارساتها ، إلا أنه في قرارة نفسه أبقى على قناعته التي تشدد على أفضلية الحضارة الغربية التي تشكل الولايات المتحدة محورها)) (9)

يعتمد (صمويل هنتغتون) في أطروحته على أوليات صحيحة ـ في نظر الأستاذ سهيل فرح ـ وهي الدور الريادي الذي لعبته الولايات المتحدة الأمريكية في تعميم الحرية ..والتبجح بفلسفة الديمقراطية وروح التسامح والسلام ...

ولكن المستوى الحضاري الذي بلغته هذه الحضارة وامتلاك زمام الريادة كان بفضل من ؟ الأمريكيين ؟ من يكون هؤلاء الأمريكان ؟ إنهم المثقفين والعلماء ورجال الأعمال والناس البسطاء من إسبان وسود ويونان ويهود وروس وعرب ومسلمين ، من كل القارات .على حد تعبير الأستاذ سهيل فرح .(10)

هذه الملاحظة الأولى التي يأخذها الأستاذ على عولمة صمويل هنتغتون إذ كيف تجحد العولمة الأمريكية جميل الأيادي التي صنعت حضارتها وقوتها ...

الملاحظة الثانية التي يستشفّها الأستاذ (سهيل فرح) وهي أن الدعوة والمناداة بالحرية ومجمل الممارسات ((لم تكن وراءها فلسفة بريئة، فلقد كشفت عن وجوه متنوعة من التطرف أخلت بالكثير من نقاط التوازن التي تستند عليها العلاقات بين الأفراد والشعوب .) (11)

العولمة المؤمركة إيديولوجيا تجعل من المادي غاية ومن الروحي تسلية ، ومن البراغماتية الفردية عنوانا وهدفا تكون الإنسانية أداة ومطيّة لتحقيقها .

يكشف الأستاذ سهيل فرح في هذه العولمة المؤمركة عن وجود بنيات أولية تحرك غايات المشروع وآلياته وهي رباعية : المال والقوة والسلطة والمعرفة ، تتسلح بشتى المبتكرات التقنية التي أبدعها العقل التوتاليتاري النيوليبرالي ـ والتعبير للأستاذ ـ لتحقيق هدفين وهما : الردع البدني بواسطة الآلة العسكرية ، وفبركة ـ لا بل قصف الوعي ـ عبر وسائل الإعلام ..وينطلق الأستاذ من رؤية علمية يؤكدها الواقع الراهن ففلسفة هذه العولمة تنبع من نرجسية متمركزة حول الأنا القومي والحضاري على حساب مصالح الجماعات القومية والحضارية الأخرى ، وفي مقال بعنوان : القيم في زمن العولمة للأستاذ (سهيل فرح) يقدم فيه لكتاب:(التربية والمجتمع على عتبة الألفية الثالثة) لرئيس أكاديمية التعليم الروسية، البروفسور نيكولاي نيكاندروف والتي يصفها بلغة المخاطب فيقول : ((هذه الفلسفة لا حقوق ولا أهمية للحضارة الضعيفة ماديا وتقنيا ، لا حقوق ولا احترام للموروث الثقافي الضخم الذي تراكم خلال آلاف السنين.. ولا قيمة عملية وحتى معنوية للجانب الأخلد في الشخصية الإنسانية وهو الجانب الروحاني)12.

ويدعو الأستاذ في نفس المقال الى مناهضة هذا النوع من العولمة التي يكون فيها البحث في القيم وإعادة الاعتبار للجانب الأكسيولوجي يشكل (ضربا لشبكة المصالح التي نسجوها على المستوى العالمي).

الأطروحة الثانية التي يضعها الأستاذ في وضعية تقابلية مع أطروحة صمويل هنتغتون هي أطروحة

(يرسوف) التي تمثل الرؤية التشاؤمية في روسيا لعولمة أمريكا مقابل التيار الديمقراطي الذي يتماهى مع هذه العولمة ، فموقف (يرسوف) يعكس وجهة النظر القومية والأرثوذكسية واليسارية في روسيا، وهو يقوم على مسلمات ومصادرات ـ يحددها الأستاذ (سهيل فرح) ـ هي :

أولا : غياب التكافؤ في عملية التواصل الحضاري والثقافي بين حضارات الشرق و الغرب ، فتعامل الغرب المالك للرباعية : المال ، السلطة ، المعرفة ، القوة ، مع الشرق الذي لازال يرزح تحت نير الثلاثي المشئوم : الفقر ، الجهل ، المرض .هو تعامل بين طرفين غير متكافئين .

ثانيا : العولمة المؤمركة تقوم عل النهج التوسعي الذي يهدف الى الهيمنة والتسلط ، واحتواء عقل وأكسيولوجيا الشعوب والحضارات الأخرى ... يقول يرسوف : ((.. إن قيم الخلاص، الخير ، التآخي ، الحقيقة ، الوفاء ، التضامن بين البشر ، أضحت كلها وكأن لا حاجة لها في عصر الحداثة ، لا بل تعتبر ضارة ومعوقة لمن يسعى للمساهمة بنجاح في حقبة الحداثة)) ـ 13

ثالثا : تكريس ثقافة اللاحوار واللاتسامح بين الحضارات والثقافات عملا بالمبدأ الاستعماري الكلاسيكي : ((فرِّق تسد)).

رابعا : تقسيم العالم إلى ثلاث مجموعات أو عوالم تختلف وتتغاير منظومتها القيمية والجمالية والمادية ، العالم الأول : وهو عالم دول الشمال الغنية ، العالم الثاني : الحضارات الصينية والهندية والإسلامية، العالم الثالث: يضم كل الأطراف الرافضة للعالمين الأول والثاني ...

فالعلاقة بين العالم الأول علاقة الحدود المتناقضة أو المتعاكسة حيث نجد الرؤية المركزية للعالم الأول هي الاستكبار، والرؤية الأساس في العالم الثاني هي الأصولية النرجسية ..

فاجتماع مثل هذه الحدود هو إلغاء لمبدأ الثالث المرفوع فالعولمة تهدف إلى الجمع بينها وهو مستحيل عقلا وعرفا..

أما أطروحة الأستاذ سهيل فرح وموقفه من العولمة فليس بالأمر الهيّن اليسير في نظري، إذ لاحظنا أن الأستاذ سهيل فرح يحمل مشروعا نهضويا حضاريا يهدف إلى توحيد البشرية والارتقاء بها نحو الغايات السامية التي وجدت من أجلها ..ويمكن تنميط هذه الأطروحة في موضوعتين أو مصادرتين

وكل مصادرة تتركب من أوليات ..

المصادرة الأولى : العولمة :بين الشمولية ورهان الصدام

أولا :

يؤمن الأستاذ بالحركة الدورية للتاريخ :يقول في كتابه: ((فلا أزلية لاستمرار أي حضارة رائدة مهما توفر لديها من عناصر القوة الراهنة)) [14] فالحضارة الأمريكية إلى زوال شأنه شأن الحضارات السابقة ومؤشرات التآكل والضمور مثبتة في الواقع الأمريكي.

ثانيا :

العولمة ليست حالة مؤقتة ترتبط بالثقافة الأمريكية أو حضارتها وتزول بزوالها بل هي مرشحة لأن تكون كونية .وهي ثانيا ظاهرة تتحرك في سياق اقتصادي بحت فهي كما يقول الأستاذ :((العولمة ظاهرة اقتصادوية بامتياز ، وتسعى لتعميم ثقافتها الجماهيرية العالمية المتميزة بثلاث سمات : السمة التي تجعل من اللغة الانكليزية ومن الدولار بمثابة العجل الذهبي الذي يوجب أن تمارس الشعوب خضوعها وتبنيهما التام لهما .))[15] والسمة التي تطبع العولمة المؤمركة هي الوضعية الاحتكارية ، إذ نلاحظ أنها تتحكم في المنتوج السينمائي والغنائي لدرجة لا يمكن تحديد سقفها، ولغاية فبركة الوعي البشري وبرمجته ...والطوفان الهائل من أفلام العنف والجنس والترويج لشخصية البيزنسمان على الطريقة الأمريكية دليل عل الغاية المتوخاة من هذه العولمة.

العولمة المؤمركة إثمها أكبر من نفعها ، فهي تملك ((قدرة مرعبة لامتصاص كل الاختلافات والتنويعات القائمة في العالم .))[16]والشغل الشاغل لهذه العولمة هو دفع حركة العلم والتقنية نحو النمو، بغية تحويل العالم إلى سوق استهلاكية..

ومن اللحاظ التي تميز الرؤية الفلسفية للأستاذ لقضية العولمة توظيفه واستعارته لبنية مفاهيمية تنسجم مع روح المصطلح خلال عملية الإسقاط ، ومنها مصطلح ((حضارة الشهوة)) أي حضارة الرغبة والاشتهاء، حضارة الجسد ، واستمرارية المطلوبية لدى الجسد مدة امتلاكه الحياة ، والتركيز على مؤشر الشهوة هو إلغاء الطاقة الوجدانية والعقلية والروحية .

فالوحدة الكلية هي الماهية التكوينية والقهرية للكائن البشري ، والنظرة التجزيئية سواء كانت ثنوية أو ثلاثية أو أكثر هي نظرة تفتقد للأساس الموضوعي في نظر الأستاذ ..

ثالثا : مستقبل البشرية:

1 / التناحر والصدام الحضاري بين الشمال والجنوب يسير وفق متتالية هندسية .

2 / الصدام الحضاري بين الحضارات الفرعية يسير وفق متتالية عددية

3 / المرجعية الثقافية المتنوعة والمتعددة للشعوب هي المبدأ المحرِّك لحركة التاريخ

رابعا :نهاية التاريخ ، نهاية الإيديولوجيات ، نهاية العالم ، نهاية الإنسان حتمية كونية .

المصادرة الثانية : مابعد العولمة : الحوار واللقاء بين الثقافات

يقول الأستاذ : سهيل فرح في كتابه : ((إن حركة الوعي بالكون ومعه فلسفتها وما يتكرّس لذلك من طاقات علمية براقة أميركية وروسية وأوروبية

وأسيوية وغيرها والتي تنعش منطقة الخيال العلمي في الذهن الإنساني قد تفتح على المدى القريب أو البعيد منفذا أو رجاء لأن تحضر الحكمة الإنسانية بشكل أوسع في تجربة البشر الحضارية على هذا الكوكب ولأن نتقلص دائرة التشاؤم ونتوسع الدائرة الأخرى من أجل نقلها الى فضاءات أو سع .)) 16

في كتاب (حوار الحضارات :والعلاقة الدولية) للأستاذ سهيل فرح وعميد معهد العلاقات الدولية في جامعة نجني نوفغورد الحكومية الروسية :أليغ كولوبوف ، تتحدد أوليات المشروع عند الأستاذ سهيل فرح ، والذي يمكن أن نستشفه من خلال المبادئ التي تكفل الأستاذ بالسعي على نشرها وتحقيقها وهي :

أولا : البحث عن القواسم المشتركة أو نقطة الاوميغا الكليانية التي تجمع التنوع البيولوجي الحي بين الكائنات المتعايشة على هذا الكوكب .

ثانيا : البحث عن أساليب تحويل وتفعيل التنوع الثقافي في عملية التنمية الاقتصادية والأخلاقية .

ثالثا : البحث عن الضمانات الحقوقية التي يتوجب أن تقوننها السلطات التشريعية والتنفيذية لكي يشكل مبدأ التنوع الثقافي جزءا لا يتجزأ من حقوق الإنسان في التعبير الحر بلغته الوطنية

رابعا : البحث عن آلية نتحاشى فيها تحويل الثقافات المحلية الى ثقافات متحفية ، غير حية أمام خطر الجانب العدواني في العولمة .

خامسا : انتقاء التجارب الايجابية في الشرق لبناء إستراتيجية أخلاقية عالمية معتمدة على مبادئ الاحترام والتعاون واللقاء الإنساني المبدع بين ثقافات هذا الكوكب وأديانه وأفكاره وعلومه .

الخلاصة :

وفي الختام يسرّني أن أقدم مقطعا من حدبث الأستاذ سهيل فرح الذي جرى في اجتماع الدائرة المستديرة والتي عنوانها : حوار الحضارات : الجديد في تجربة علاقات روسيا مع دول المشرق العربي موسكو يوم الثالث من أكتوبر 2008

والذي جاء فيه (إنني لا أمثل لبنان فقط ، لا سيّما أنني امتلك المواطنة الثانية (الروسية)**.. تعتمد فلسفة بيتنا اللبناني الروسي وإستراتيجيتنا على ثلاث أحكام :**

ـ توسيع الحوار بين الثقافات والأديان ، وبين روسيا والحضارة الإسلامية ـ المسيحية**.**

ـ جمع حكمة العلم وروحية الدين في دراستنا

ـ الاهتمام بالحوار وليس بالصراع .

الهوامش :

1 ـ موسوعة أعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر عمان 2008 ـ ص 306/302

2 ـ maabar.org//issue //august03/spot light2.htm

3 ـ قضايا في الفكر المعاصر . د محمد عابد الجابري ص 135. مركز دراسات الوحدة العربية

4 ـ كتاب : ((الطريق الثالث ـ تجديد الديمقراطية الاجتماعية) ترجمة، تحقيق: أحمد زايد - محمد محي الدين - محمد الجوهري ص 62.

5 ـ مفكر مصري ولد 1931 له مؤلفات عديدة .

6 ـ صامويل فلبس هنتنجتون *Samuel Phillips Huntington*.

(ولد 18 أبريل 1927 - توفي 24 ديسمبر 2008. أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول، ثم أطروحته بأن اللاعبين السياسيين المركزيين في القرن الحادي والعشرين سيكونوا الحضارات وليس الدول القومية. كما استحوذ على الانتباه لتحليله للمخاطر على الولايات المتحدة التي تشكلها الهجرة المعاصرة. درس في جامعة يال، وهو أستاذ بجامعة هارفارد.برز اسم هنتنجتون أول مرة في الستينات بنشره بحث بعنوان "النظام السياسي في مجتمعات متغيرة"، وهو العمل الذي تحدى النظرة التقليدية لمنظري التحديث والتي كانت تقول بأن التقدم الاقتصادي والاجتماعي سيؤديان إلى قيام ديمقراطيات مستقرة في المستعمرات حديثة الاستقلال.

7 ـ صدام الحضارات ـ إعادة صنع النظام العالمي ، هنتغتون . ترجمة : طلعت الشايب . تقديم د . صلاح قنصوه ط2 ـ 1999/

8ـ كتاب الحضارة الروسية:أسئلة الهوية والأخرـالعربي . سهيل فرح دار النهار 2007 ص 145/144

10 ـ كتاب الحضارة الروسية:أسئلة الهوية والأخر_العربي . سهيل فرح دار النهار 2007

11 ـ كتاب الحضارة الروسية:أسئلة الهوية والأخر_العربي . سهيل فرح دار النهار 2007

12 ـ المقال منشور في الانترنيت في
http://www.maaber.50megs.com/issue_february05/books3.htm

13 ـ بوريس يرسوف ((بنية العولمة)) التفاعل ، التصادم أم الانهيار . من كتاب حوار وتفاعل حضارات الشرق والغرب وخيارات القرن الواحد والعشرين موسكو 2001 ص 124

14 ـ كتاب الحضارة الروسية:أسئلة الهوية والأخر_العربي . سهيل فرح دار النهار 2007

15 ـ من كتاب : سهيل فرح ص 237

16ـ من مقال ورد في جريدة النهار: 2009/2/8

*العولمة والتنوع الثقافي الخلاق ص 236